غَيَّرَتْنَا القَضِيَّةُ

محمد تامر

غَيَّرَتنَا القَضِيَّةُ

تأليف: محمد تامر

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله

لله الشكر والحمد والفضل على سائر نعمه عموماً، وعلى نعمة إلهامه لي بإتمام هذا العمل الأدبي خصوصاً، وهو الموفق والمستعان. اللهم انصر إخواننا في فلسطين، وثبت أقدامهم وانصرهم على أعدائهم وخاذليهم. اللهم آمين.

إهداء

إلى زوجتي المستقبلية العزيزة، قبلة وضمة حانيتان أظنكِ مللتِهما وبعد...

إننا نحيا في عالم قاس لا يعرف إنسانية أو شفقة أو رحمة، ويتجلى ذلك بلا شك في الفظائع التي تُرتَكَب ضد إخواننا في فلسطين ولبنان على مرأى ومسمع - بل ودعم - من أغلب العالم، ولا حياة لمن تنادي، أو دعنا نقل أننا نصم آذاننا عن النداء!

لكن ما يحزنني حقاً هو غفلتنا عن محاولة نصرة ديننا وقضيتنا ولو بأبسط الوسائل؛ فأحداث فلسطين ولبنان جاءت ممحصة كاشفة لخبايا نفوسنا، وابتلاء واختباراً لعقائدنا وعزائمنا، ولم تكن النتائج سارة للأسف إذ أن أغلبنا رسب في الاختبار من لحظاته الأولى!

وإني بهذا الكلام لا أقصد أن أكون مُنَظِّراً بل إن نتائجي في هذا الاختبار أسوأ منكم، لكنني آسى على حالنا وحسب وأرجو له من الله تغييراً وتهذيباً، وأرجو لنا من الله هداية عظيمة تجعلنا ننهض ونفيق من سكرتنا تلك.

لقد اتخذت قراري بأن أهتم بصورتي أمام ربي؛ فيوم القيامة سأجد نفسي أحاسب وحدي؛ فابتغيت أن أثبت له أنني أهتم - أو على الأقل أحاول - به وبدينه وبقضايا هذا الدين؛ فهداني ربي وألهمني بفكرة هذا الكتيب البسيط؛ فشرعت في كتابته فوراً آملاً أن يكون شاهداً في صفي أمام الله يوم الحساب.

اعذريني إذ أظنني قد فقدت مهارتي في صياغة الإهداء؛ فأنا الآن أمر بوقت عصيب لم أعد أدري فيه ماذا أريد أن أقول أو أفعل؛ فاعذريني وسامحيني، واطلبي من ربنا لي المغفرة فإني أخاف أن ألقاه على حال لا يرضاه ولا أرضاه.

مقدمة

ليس لدي الكثير لأقوله؛ سوى أن ما أفعله الآن رأيته واجباً علي كمسلم؛ فقد رزقني الله موهبة خط الفِكر بالقلم، وسيكون من العار ألا أكون قد وظفتها في تجربة أدبية - ولو كانت بسيطة ووحيدة - أثبت ولائي له جل وعلا بها، وشكري وحمدي له على نعمته، ونصرتي لقضية المستضعفين في الأرض الذين يؤمنون به، قدر ما أستطيع.

ولتشهد يا إلهي أن هذا أقصى ما أستطيع فعله في الوقت الراهن، وأنت أعلم مني بحالي؛ فاغفر لي تقصيري وتقبل مني هذا القليل من أفعالي، وانصر إخواننا وأرنا عجائب قدرتك في أعدائهم، آمين.

هذا الكتيب ليس روائياً؛ وإنما هو سرد بضمير المتكلم لأفكار تعتمل في صدري، وما أقوله فيه يجمع بين ما أود قوله وبين ما يود كثيرون غيري أن يقولونه أو يقصونه.

هذا الكتيب هو تجميع لمقالات ثلاثة كتبتها بشأن موضوع غزة، مع إعادة صياغة وتنقيح بعض الكلمات والتعبيرات وإن كنت لا أشعر أني وصلت بها رغم ذلك إلى المستوى المطلوب، لكن يشفع لي أني حاولت.

ملاحظة هامة: ٤٥% فقط من المكتوب في الصفحات التالية ينتمي إلى حياتي الشخصية.

ملاحظة أهم: هذا الكتيب قصير جداً؛ إيماناً مني بأن خير الكلام ما قل ودل، وليس تقصيراً مني باستخدام مهاراتي الأدبية في حق الله ونصرة دينه وقضاياه؛ فالمتابعون منكم لي ولأدبياتي يعلمون أنني في الأساس أفضل كتابة القصص والروايات القصيرة عما

سواهما، ويعلمون أنني لا أحبذ الثرثرة والإسهاب الأدبيين، وهذا لا يعني أنني لا أحترم من يخالفني الفلسفة الكتابية ولكن كما قلت: "أنا" أرى أن خير الكلام ما قل ودل، فلا شأن لي بغيري.

ملاحظة أهم قليلاً: أنا بانتقادي لبعض فئات الناس في صفحات الكتيب لا أقصد بها تدخلاً في سرائر الناس، بل إني أعلم أن من أظنه مفسداً في الأرض قد يكون عند الله أفضل مني، إن هداه، لكنني أنتقد وأتعامل مع الظاهر لي وحسب.

كيف كنتُ؟

كثيراً ما تمنيت بيني وبين نفسي لو أن التطور التكنولوجي لم ينفجر بهذا الشكل قاذفاً إيانا في ظلمات العولمة والانفتاح الثقافي، وأنا بالطبع لست ضده بشكل مطلق إنما ضد أسوأ نتائجه التي نعانيها اليوم؛ وهي ضياع هويتنا وذوبانها وسط هويات أخرى لا تمت لنا بصلة، وعدم محاولتنا حتى استعادتها لأننا قد نسيناها أصلاً!

قبل أحداث طوفان الأقصى الغنية عن التعريف كان حالي أسوأ من اليوم بكثير؛ لفترة طويلة في حياتي كنت مهملاً لديني ولغتي وهويتي، وكان انبهاري وتقديسي دائماً من نصيب الغرب، وكانت كل الدنيا في عيني ليست سوى مادة، والأولوية دائماً لما أراه أو أستشعره بالحواس فقط.

أذكر أيضاً أنني كنت أشمئز من المظاهر الدينية كثيراً، لم يكن اشمئزاز كراهية إلى حد كبير بصراحة فأنا لا أقول لكم أني كنت ملحداً مثلاً، لكن هذا الأمر سيفهمه بعضكم بسهولة ممن يشمئزون من اللحى وإدراج بعض العبارات الدينية في الحديث وحتى لبس الجلباب - رأيت هذا بأم عيني والله

كنت عبداً للظهور والسوشيال ميديا على حساب كل ما سواهما، رغم أنني لم أكن مشهوراً ولم أعلم أحداً يهتم بي، لكني تأثرت سلبياً بانفجار وسائل التواصل الاجتماعي الذي أفقد حياتنا معناها وقيمتها، وحولنا إلى مسوخ، مثلي مثل كثيرين غيري.

كنت أجد راحتي في تصفح مواقع التواصل بلا هدف، وأتابع أناساً لا يقدمون شيئاً هاماً سوى سخافات لا جدوى منها، كمدمن المخدرات أتصفح وأتصفح، وأرى حثالة المجتمع وقد أصبحوا أثرياء ومهمين ولهم في العالم منابر ومنصات يتحدثون من خلالها بالترهات، لا تشعر أن أحداً منهم إنسان مثلك له مشاعر وأحاسيس ووعي بالدنيا والعالم بل أغلبهم لا مبدأ لهم ولا رسالة سوى عبادة الهوى والمادة!

لقد كنت غبياً وتائهاً لا أدري ما أفعل، وأنام كي أستيقظ وأنتظر اليوم ليمر وحسب، وفكرتي عن الحياة طالحة كوني ظننت المادة هي الحقيقة، وكوني آمنت أن المجد للسخفاء، وأن الأبطال هم الممثلون والبلوجرز والإعلاميون والإنفلونسرز وكل أولئك الحمقى الذين يطلون علينا بمظهر الآلهة ذوي الكمال موهمين إيانا أن نكون بلا روح أو قيمة مثلهم، ويغروننا بشراء أشياء لا نحتاجها حتى، وعندما يحين وقت الجد ومع علمهم أن كثيرين سيستمعون إليهم تجدهم لا يأبهون لأي قضية تخص الدين أو الأمة أو الإنسانية بشكل عام!

غارقون تماماً في العبودية للأعجميين، ولمؤثراتهم الفاسدة في الثقافة والمأكل والمشرب والملبس وأغلب نواحي الحياة؛ فتجد الفتاة في الجيل الحالي لا تعلم عن الحشمة مثقال ذرة، وتتفنن في الإغواء والمتاجرة بجسدها وتسليع نفسها في سوق العمل والإعلانات وغير ذلك، وتجد من جيلنا كثيرين قد تأثرت ثقافتهم بالغرب أكثر مما ينبغي على حساب ديننا وتراثنا؛ فتجدهم يطالعون كتباً أو يشاهدون أفلاماً ويرتضون لغة هؤلاء القوم، ولا يطيقون في المقابل نظرة إلى المصحف أو نطق كلمة بالعربية حتى!

إنني لست ضد الثقافة، وأنا أحترم التأثير الثقافي لجميع الدول والأعراق والحضارات، وأعترف أن الغرب لهم مؤثرات حضارية مختلفة نافعة، لكن الكارثة أننا لا ننتفع بها أو نغرق فيها على حساب هويتنا وتراثنا نحن.

كان ذلك باختصار - أظنه مخلاً - حالي، فأجدكم تتساءلون: هل تغيرت؟ وما الذي غيرني؟

فأجيبكم: نعم تغيرت، وغيرتني فلسطين وغيرني حال أهلها.

ماذا حدث؟

إننا في عام ٢٠٢٤ وما زلنا نرى المتحضرين يرتكبون أبشع الجرائم الإنسانية وأفعال التطهير العرقي، وما زلنا صامتين!

مع مرور الزمن، ورغم تطور علمه وعقله، لا زال الإنسان يثبت أنه حقير مجسد لكل الخطايا، وما زالت مجريات الأحداث تثبت أن السياسة هي أقذر أنواع الإرهاب، وأن الحياد في القضايا الإنسانية أسوأ من الوقوف في جانب الشر نفسه!

بأي ذنب يقتل ويقصف كل هؤلاء بهذا الشكل البشع؟ وبأي جبروت وبرود يقف العالم متفرجاً دون أن يفعل شيئاً؟ وبأي خسة ودناءة يغض العرب أصحاب القضية أبصارهم عن كل هذا دون أن يذكروا إخواننا حتى بالدعاء؟!

والله إني لا أكذب؛ أناس أعرفهم لاموا على المقاومة أنها فتحت النار على الصهاينة المحتلين، وآخرون شمتوا في القصف الذي حدث للفلسطينيين وهذا والله رأيته بأم عيني، وآخرون ينتهزون الفرصة كي يبرزوا قبليتهم الجاهلية بمفهوم جديد وهو القومية - وكما نعلم أن كل القذارات تتطور بمفاهيم جديدة على مر الزمان، مثل الزنا الذي أصبح بقدرة قادر مساكنة وغير ذلك - معطين أفضل فرصة لمخططات العدو بالتفرقة بيننا أن تنجح أكثر مما توقع العدو نفسه!

إن المشكلة ليست فيما يحدث لإخواننا هناك حقاً كون هذا الموت رحمة لهم من الدنيا وآثامها، لكن المصيبة أن ما يحدث غير قليلين منا للأفضل، لكنه في المقابل كشف عن قذارات خبايا نفوس كثيرة كنا نعد أصحابها من الصالحين!

يروي صديق لي أنه كان مع طاقم طبي في غزة، ووصله مع الموتى طفل رضيع ليكفنه؛ فرآه قد أصبح قطعة من الفحم لكن بطنه لا زالت تتحرك؛ أي أنه لفظ آخر أنفاسه وهو متفحم ويُكَفَّن!

ونرى من آثار هذا الإرهاب الذي يُمارس برضا العالم المزيد، وآسف إن كنت سأثير الغثيان لمخيلات بعضكم لكن...ألم تشاهد أثناء تصفحك عديم الفائدة لوسائل التواصل مقطع فيديو الرجل الذي يحمل ابنه الذي لا رأس له، أو الأطفال الذين تفحموا من القصف، أو أو أو...ألم تر شيئاً من ذلك؟!

لا تظن أننا نطلب منك أن تذهب بنفسك إلى هناك وتجاهد فأنت لن تحتمل لحظة مما ستراه، لكننا فقط نطلب منك أن تكون إنساناً على الأقل، فأنا أعلم أن هويتنا الإسلامية وقضايانا ضاعت وذابت بشكل لا يجعلها قابلة للاستعادة إلا بأمر الله؛ لذا فلن أطلب منك أن تكون مسلماً حقيقياً أو شيئاً كهذا، لا تقلق، عد إلى سكرتك وغفلتك!

لا تكن إنساناً حتى...انس أنني طلبت، عد إلى سكرتك وغفلتك!

عد إلى طعامك الذي تتناوله وأنت لا تتأمل قيمته، وإلى فراشك الآمن الذي تعتبره أمراً روتينياً رغم أن غيرك محروم منه، وإلى الماء الذي تشربه بسهولة ويسر دون أن تضطر للوقوف في طوابير لتشربه وأنت لا تدري أستظل حياً أم لا...

عد ولا بأس عليك، فهذه القضية تتطلب أناساً يفرقون بين الدنيا والآخرة، ولا أحد منا قد وصل إيمانه إلى هذه الدرجة بعد!

إنني بحديثي هذا لا أُنَظِّرُ أو أتكبر، وإنما أنا أسوأ حالاً منكم، لكن كما أقول دائماً فهذا مجرد تفريغ لحزن لا أعلم كيف أصوغه أو أعبر عنه، أنا بالتأكيد لا أطلب منك أن تصوم حياتك عن الطعام والماء وأن تنام بالشارع كي تثبت تعاطفك مع إخوانك، ولو أنك ظننتني أقصد هذا فأنت أحمق وجاهل وسفيه، بسيطة!

كيف تغيرتُ؟

وإذن كيف غيرني كل هذا؟

بدايةً، ذكرني ما حدث وما علمت أن الدنيا حقاً وصدقاً فانية، وأنه لا خير مرجو منها، وأنه يجب علينا الفصل بين هذا العالم المادي الحقير وبين مملكة السماء حيث نرى ربنا جل وعلا، وحيث يحاسب العباد على أعمالهم وتراهم في نهاية المطاف إما في جنة وإما في نار.

وذكرني أيضاً أن قيمة المرء وأهميته وتأثيره ليس من الضروري حتى أن يكونوا في حياته، وأنه علي أن أربط قلبي بالآخرة لا الدنيا كيلا أُخذل وأتحسر، وأن كل تلك القوة وكل هذا العلم وكل هذه السلطة والهيبة التي قد يتمتع بها بشري إنما هي زائفة مؤقتة ينبهر بها أو يخشاها المغفلون، وينسون أنها فانية بمرور الزمن.

إن ما يحدث اليوم هناك قد وُصِفَ بكل ما هو ممكن من صياغات، وكتبت عنه تقريباً جميع الأقلام وتحدثت عنه تقريباً جميع الألسنة، ولكنني لن أتحدث عما يحدث هناك إذ أنه معروف وواضح؛ الكل يعرف في أقاصي الشرق والغرب من المجرم ومن الضحية، ولكن السياسيين والحمقى فقط هم من يخالفون الحقائق كما نعلم!

ما أحاول أن آتي على ذكره الآن هو أثر ما يحدث هناك علينا، وكيف أنه غيرنا، وكيف أنه لا يعد مجرد حكاية عن شعب يقاوم احتلال بعض المعتدين المتعطشين للدماء، وإنما هو قضية تمس جوارح وحياة كل فرد مسلم منا هنا في وطننا العربي، أو خارجه حتى لو لم

يكن مسلماً؛ فهذه واحدة من أكثر القضايا التي لن أبالغ إن قلت أنها تساهم حالياً في إعادة تشكيل وعي العالم!

قرأنا كثيراً وسمعنا خطباً في المساجد عن الشهادة، وعن فضلها، وحكاياتٍ عنها كانت عجيبة بالنسبة لنا، وتجعلنا دائماً نسأل أنفسنا سؤالين: "كيف؟" و"هل فات الأوان على أن نرى أموراً كهذه على أرض الواقع في هذا العصر؟"

إجابة "كيف؟" هي الإيمان بالطبع، ولكن أي إيمان!

أي إيمان يجعل كل أولئك الناس يودعون أحباباً لهم كل يوم ويظلون صامدين ومؤمنين بقضيتهم ومتمسكين بدينهم وأرضهم بهكذا طريقة؟!

كيف لهم أن يظلوا أحياء ومقاومين رغم نقص إمداداتهم المعنوية والمادية هناك، كيف لهم حقاً أن...ينيروا وسط كل هذا الظلام الذي يحيون فيه؟!

إجابة "كيف؟"...هي الإيمان بالطبع...ولكن أي إيمان!

هذه القضية علمت العالم حقاً أن "السياسة مقرونة بالدماء!" وجعلتهم يعيدون النظر في أمور وأفكار ومعتقدات عدة، بل وحتى - حسب علمي - ألهمت أناساً كثر بدخول الإسلام نفسه، وهذا بالطبع أمر طبيعي بالنسبة لشخص يرى حقاً أساطير بمعنى الكلمة لا يراها إلا في الأفلام أو حكايات الزمان الماضي عن أشخاص يتعرضون لهكذا إبادة جماعية ويظلون مقاومين وصامدين و....باسمين!

أما عنا تحديداً، فهذه القضية حقاً إسلامية في المقام الأول قبل أن تكون إنسانية أو عالمية؛ فهي - في عصر الفتن هذا - تعتبر الفيصل الرئيسي بين الحق والباطل؛ إذ أنها أزاحت لك الستار كمسلم عن المنافقين والمدعين، وكشفت لك عدة حقائق أعلم أنك تتمنى لو لم تعرفها ولكن كان عليك حقاً أن تعرفها، وقَوَّت بداخلنا كمسلمين أجمعين

الإيمان بالله، وأعلمتنا بأن هذا الدين لا زال حياً وشامخاً بأهله، وأن الله ناصر عباده المؤمنين ولو حتى بالصبر فقط.

علمتنا قيمة رغيف الخبز الذي نشمئز من تناوله وحده ليلاً إذا لم نجد ما نأكله به، علمتنا قيمة الحياة والإيمان وألهمتنا للتقرب من الله أكثر وأكثر، وكشفت عن المروءة والنخوة والحس البطولي بداخلنا إذ جعلت كل مسلم منا يكثف الدعاء ويتأثر بما يحدث لإخوانه ويحاول نصرتهم ولو بكلمة؛ وبالتالي علمتنا أيضاً قيمة الأفعال البسيطة على جميع الأصعدة؛ ولذا فلا ينبغي أن نحقر من أي فعل مهما كانت قيمته؛ فالدعاء والمقاطعة والتوعية بالقضية على منصات التواصل قد تكون أموراً بسيطة لا يرجى منها أصلاً نصر أو تغيير كبير ولكن خمن ماذا؟ المقاومة نفسها لا يرجى منها دون إرادة الله نصر حقيقي! إنما إخواننا هناك قاد باعوا الدنيا وتخلوا عنها ورضوا بلقاء الله، ونحن هنا تحكمنا الفلسفة المادية اللعينة ونتساءل عن الأثر المادي الملموس لكل فعل بسيط سنقوم به، رغم أن هذا الأثر لا ينبغي له أن يكون الهدف أصلاً وإنما ينبغي أن تكون مرضاة الله هي الهدف، ينبغي أن تفعل ذلك لتثبت لله أنك تأبه وتهتم بدينك وبإخوانك وبما يحدث هناك، وبأنك تعلم أن هذه قضيتك حتى إن لم يكتب الله لك الجهاد بالنفس في سبيلها، فلا تحقر من هذه الأفعال أو تنتظر منها نتيجة ملموسة وإلا فإنك بذلك تخون إخوانك دون أن تشعر بالتثبيط من الهمم وتدنيس عقيدتك نفسها!

إياك أن تؤمن بالمادة، لا تكن كما يريدونك ولا تجعلهم ينتزعون إيمانك بالآخرة والغيب منك، ادرس واقرأ في العقيدة الإسلامية واحفظ وتذكر أبجدياتها دائماً، وأدرك أن المعيار هو الله، ثم الله ثم الله، أما الدنيا فليست بمعيار...هي ليست بشيء! والله ليست بشيء!

إن ما يحدث اليوم هناك هو كما قلت آنفاً ظاهرة تعيد تشكيل وعي العالم، ظاهرة ذات أبعاد أزعم أنها قد تكون شاملة لفلسفة حياة العالم بشكل كامل، ظاهرة تعلم المرء مسلماً أو لا قيمة كل لحظة أمن وأمان يقضيها في منزله وبالتالي تعلمه كيف يعيش،

ظاهرة تخلق من ذوي الحيلة القليلة أبطالاً بقدر ما يقدمونه لنصرة إخوانهم مهما كان بسيطاً، ظاهرة كسرت كل قواعد البطولة في عصر كهذا وعلمتنا حقاً من هم الأبطال الحقيقيون في هذا العالم، ظاهرة ينبغي حسب زعمي أن تدرس في المدارس بكل أنحاء العالم ليستخلص منها الطلاب والمعلمون قيم البطولة وأهمية الحياة وجوهرها بأضعف تفاصيلها!

ظاهرة يحق لها أن تكون حديث العالم أجمع، وربما - دون مبالغة - أن توحده في وجه الظلم العالمي!

غزة لم تعد الآن معركة المسلمين وحسب بل أصبحت تقريباً قضية ومعركة ونضال العالم بأسره، ناهيك عن السياسيين الملاعين الذين ينصبون أنفسهم آلهة وهم ليسوا سوى آلهة زائفة، كما سيتضح عاجلاً أم آجلاً.

وفي الختام، ندعوك ربي أن تنصر إخواننا، وتثبت أقدامهم، وتلهمهم الصبر على مصائبهم، وتكتب لهم فرجاً ونصراً قريبين من عندك يارب العالمين.

تم بحمد الله